

# المعرفة العلمية عند البدائيين في نظرية ليفي ستراوس

عباس البيشم

بدراسة البدائيين ، وعند الذين يستعملون المنهج البنيوي في دراسة مختلف المظاهر الذهنية والاجتماعية في المجتمعات المتحضرة. وستعتمد هذه الدراسة على تصور العلم عند البدائيين كما يعرفه ليفي - ستراوس في الفصل الاول من كتابه الفكر البدائي (La Pensée sauvage).

١ - ٢ : يقول ليفي - ستراوس ان المتحضرين لا يقرون الشكل العلمي للمعرفة الا لتلك التي تستعمل التصور (concept) والتي تتم وفقا لمعايير منهجية متعارف عليها في كل فرع من فروع المعرفة العلمية ، والتي تؤدي الى تفسيرات نظرية وتطبيقات عملية .

ولكن ليفي - ستراوس لا يرى في شكل المعرفة العلمية هذا ، الشكل الوحيد الممكن . وقد اعتمد المؤلف على جملة من الملاحظات - المشاهد التي قام بها علماء الاثنولوجيا ، ليستنتج منها وجود ذهنية علمية حقيقية عند البدائيين . ولكن ، اذا كان تفكير هؤلاء لا يتوصل الى نفس النتائج العلمية التي يتوصل

١ - ١ : تحتل فرضية وجود معرفة علمية عند البدائيين ، متساوية في جوهرها مع المعرفة العلمية عند المتحضرين ، حيزا كبير الاهمية في التفسير البنيوي للفكر الاسطوري عند ليفي - ستراوس . كما ان المعنى الخاص الذي يعطيه هذا الاخير للمعرفة العلمية ، كلفه تمثل مختلف الظواهر الذهنية عند البدائيين . يشكل اساس المنهج الذي يستخدمه المؤلف في دراسة الميثولوجيا في كتبه الاربعة الميثولوجيات (Les mythologiques) وهذا المعنى من شأنه ايضا ان يلقي اضواء على المفهوم البنيوي للمعرفة العلمية وكيفية تناولها للوقائع الانسانية وصياغة شكلها العلمي . ومن هنا راينا ان اخضاع تصور العلم البدائي ( او علم المحسوسات كما يسميها رائد البنيوية الفرنسي ) الى النقد الجدي يمكن ان يشكل مدخلا من جملة المداخل للحكم على المنهج البنيوي في تناوله للواقع الانساني . وعلى تنظيره للمعرفة العلمية . ليس فقط عند البدائيين بل وعند المتحضرين الذين يقومون

اليها المتحضرون ولا الى نفس الاشكال النظرية لمعارفنا . فالامر يعود الى ان تفكير البدائيين لا يستخدم التصور كأداة . بل العلامات الطبيعية (Les signes naturels) والطابع الحسي والمعاش للأشياء . وبالتالي . فاننا عندما نحكم على تصورات البدائيين الميثولوجية بالعبثية نحكم عليها انطلاقا من تفكيرنا . أي من خلال نموذج معين من المعرفة العلمية ( نموذج العلم المتحضر ) . الذي نعتبره خط الشكل الصحيح والوحيد لهذه المعرفة .

واذا قصدنا ، كما يدعونا فيلسوف البنيوية ، الى فهم اختلاف وسائل المعرفتين اللتين نحن بصددهما . فمن الممكن . حسب رايه . ان نرى ان التفكير البدائي لا يقل تنظيميا عن تفكيرنا العلمي . يبقى ان نقيم ما اذا كان التنظيم . أي تنظيم . يشكل بالفعل جوهر العملية العلمية ، وهذا ما سنتعرض له في سياق هذا البحث .

٣ - ١ : ولكن ثمة نقطة أساسية تسترعي انتباهنا بادىء ذي بدء . ذلك ان صاحب كتاب « التفكير البدائي » يفترض بالضرورة وجود تصور عام للعلم . يشكل علم المتحضرين وعلم البدائيين نموذجين ، او بالأحرى مظهرين للتصور الأساسي للعلم . فمن خلال هذا التصور يقوم حكما التأكيد على الطابع العلمي للتفكير البدائي وتماهي جوهره مع التفكير العلمي لوعي المتحضرين في نظرية ليفي - ستراوس . وبكلام أكثر دقة نقول : انه من المفترض ان يكون هذان النموذجان متماثلين من جانب لى يكونا مختلفين من جانب آخر . أي ان يكون الاختلاف مبنيا على قاعدة من

٤ - ٢ : ينقل الينا مؤلف « التفكير البدائي (١) » مشاهدات متعددة لعلماء

(١) ترجمنا عنوان كتاب ليفي - ستراوس « La pensée Sauvage » بالتفكير البدائي . ويمكن إعطاء كلمة « Sauvage » معنى الفطرية او الطبيعية ، لان كلمة التفكير الوحشي او المتوحش قد لا تناسب في المفهوم الحالي المعطى لهذه الكلمة في العربية مع ما يقصده اللفظ من اسمال كلمة « Sauvage » .

المعرفة العلمية ، يفرض اعطاء الصيغة العلمية على معارف البدائيين ؟ وهل علينا ان ننظر الى ما يطرحه ليفي ستراوس كسمات العلمية ( التعطش الى المعرفة ، الاهتمام بمعرفة التفاصيل ، البحث عن التنظيم وربط الاحداث في نظام معرفي عام ) بمثابة اسس تحدد علمية البدائيين وعلمية المتحضرين ؟

٥ - ١ : الحقيقة ان هذه السمات التي يود ليفي - ستراوس ان يتعرف من خلالها الى جوهر العملية العلمية ، تشكل في الواقع سمات جميع المظاهر الذهنية عند المتحضرين ، بمعنى اننا لسو اعتمدناها في تحديد سمات العقلية العلمية لفقدت هذه الاخيرة خصائصها كشاط ذهني متميز .

٥ - ٢ : فالانتباه الى التفاصيل والنزعة الى التعميم ليستا سمتين خاصتين بالتفكير العلمي بشكل خاص . فالانتباه الى التفاصيل يفقد معناه العلمي خارج نطاق الاسئلة التي يطرحها العالم على الواقع ، حيث تصبح للتفصيل وظيفة معرفية مخصصة ، اذ ينتقل الى وضع آخر ، وضع الحدث العلمي بواسطة المفاهيم - التصورات العلمية المعنية . وبالتالي فان ما تجدر الاشارة اليه وما يتوجب تقويمه هنا لا يتعلق بالانتباه كجهد نفسي او كنية معرفة ، بل بالانتباه الموظف في مشروع علمي والذي يتبع مسارا معيناً ومحدداً من ضمن بناء تاريخي معين للمعرفة العلمية .

٥ - ٣ : وكذلك بالنسبة للنزعة الى التعميم . وهنا يمكننا التأكيد على ان هذه النزعة تميز الذهنية الطفولية ، وغير المؤهلة عند البالغين . لا بل ان التأهيل العلمي للذهن يكمن بشكل خاص بالحد من النزعة الذهنية الى التعميم « الغريزي » ، والى اخضاعها الى

الاثنولوجيا تشهد بوجود مزايا ذهنية تذكرنا ببعض مزايا الروح العلمية المثبتة في كتب الفلسفة المدرسية :

الملاحظة الدقيقة للواقع ، فضول عبر مرتبط مباشرة بالحاجات الملحة الحياتية ، الاهتمام بالتبويب والتصنيف للعالم الخارجي : عالم الحيوان والنبات والمتغيرات الطبيعية ، واخيراً الاعتقاد بان اي ظاهرة خارجية ، مهما كانت تافهة ، تربط بنظام تفسيري عام يشكل عقلنة للواقع بالنسبة للبدائي . وقد رأى المؤلف في هذه الظاهرة الذهنية ما يعادل مبدأ السببية العلمي في العلم المتحضر .

٤ - ٣ : ولكن ، ولكي نبقى في اطار ما يسمى بالروحانية العلمية الكلاسيكية ، تجدر الملاحظة ان هنالك خصائص اساسية للذهنية العلمية لم يأت على ذكرها ليفي - ستراوس ، ولم يجد في مشاهدات الاثنولوجيين ما يدعمها عند البدائيين : الشك في قيمة المعرفة ، البحث عن التثبت من مطابقة المعرفة للواقع ، الفرضية التي تقود الملاحظة والاختبار ، البحث عن التماسك المنطقي في بناء المعرفة الموضوعية ، الخ ....

ولا نود القول ان كل هذه السمات المميزة التي لم يأت على ذكرها المؤلف ، تتعلق بالاداة المعرفية الخاصة بالمتحضرين ( التصور ) لانه بذلك يعالج مشكلة بانارة مشكلة اخرى غير قابلة للمناقشة في رأينا .

لقد تعلمنا « كمتحضرين » ان نقابل المعرفة العلمية بالمعرفة الخاطئة او بالمعرفة المبنية على الآراء والمعتقدات ، وان نميز بين المقال العلمي وبين سائر المقالات ( الادبية ، الفلسفية ، الاعلامية وغيرها .. ) . فهل لدينا من الاسباب ما يجعلنا نهمل اهم الخصائص التي تميز مقال

قليلة الوضوح بحيث لا يسعنا ان نستنتج منها معلومات دقيقة . فهذه التصنيفات مبنية على بعض المعايير الحسية المبنية على معطيات الادراك : وسيلة الانتقال ( بالنسبة للحيوان ) برا او بحرا او في الهواء ، زمن الانتقال : ليلا او نهارا . القيمة الغذائية والطبية للنبات . وهي جميعها معايير تهدف الى التعرف المباشر والى التطلع الى قيمة الاشياء . ولكننا نلاحظ ايضا وجود معايير رمزية : جنس النباتات وتوافقها مع الاعداد المفردة او المزدوجة ، وموقعها من الاتجاهات الاربعة الخ ... ولكن ، اذ يؤكد ليفي ستراوس على تحليل القيم الرمزية للحيوانات والنباتات وكيفية ترابطها مع مختلف تصورات البدائيين الذهنية . فاننا لا نقع على تحليل لنموذج من التصنيف من اجل التدليل على ترابط المعايير داخل التصنيف ، وذلك طبعا لغياب مثل هذا التصنيف عند البدائيين . ولعل وجود واقع التصنيف عند البدائيين قد استحوذ على اهتمام الكاتب اكثر من قيمة التصنيف العلمية .

وبالنسبة لعمليات التصنيف يمكننا اعادة ماقلناه بالنسبة لباقي سمات « الروح العلمية » ، اي انها ، كواقع تصنيف لا تعبر الا عن « غريزة » معرفة غايتها ضبط الواقع من اجل التعرف عليه واستخدامه ، ولا يمكننا الحكم عليها كتصنيف علمي الا من خلال ترابطها حول معايير قليلة من شأنها ان تفيدنا وتفسر لنا خصائص الكائنات المصنفة .

٦ - ١ : وبعد ، فاننا نعتذر من القراء ليرادنا معلومات اصبحت من القواسم المشتركة لدى الجمهور المثقف العريض . ولم نذكر بها الا لتجاهلها من قبل ليفي ستراوس الذي راهن على ان كل ما لا نجده عند البدائي من نتائج علمية ،

المقاييس المنطقية والمنهجية . وبالتالي فعندما نقرا عند ليفي ستراوس جملة كهذه في « التفكير البدائي » ( صفحة ٢١ ) : « وهكذا نفهم ان الفكر الاسطوري يمكنه ان يكون معيما ، اذن علميا » فاننا نلمس الخطأ في اعطاء التعميم هذه الاهمية التي تجعله سمة مميزة للعمل العلمي ، بينما هو في الواقع السمة المشتركة لمختلف المظاهر الذهنية والنفسية عند الانسان .

٥ - ٤ : اما بالنسبة للطلب الذهني للتنظيم والاعتقاد الشكلي في السببية فيمكن القول كذلك انهما لا يشكلان سمات خاصة في المقال العلمي عند المتحضرين . ذلك انه يمكننا ان نجدهما في المقال الديني والمقال الميتافيزيقي ، في كلام الاطفال كما هو الحال في كلام فئة كبيرة من المصابين بالعصاب النفسي (Les névrosés) ، وحتى في الحديث العادي لجميع الناس بالنسبة لاي موضوع . والاميون بشكل خاص هم الذين يمارسون التنظيم المبسط والسريع للاحداث من خلال تفسيراتهم لا يحيط بهم من خلال بعض المعطيات والمسلمات التي لا يعيرونها اي اهتمام ناقد . والحقيقة ان المسافة التي تفصل التطلب النفسي للتنظيم وبناء تنظيم متماسك ومتلائم مع الواقع هي المسافة التي تشكل تاريخ المعرفة العلمية والتي لا يعيها ليفي ستراوس اي اهتمام .

٥ - ٥ : ولعله من المفيد ان نلقي نظرة سريعة على التصنيفات التي يقوم بها البدائيون لعالم الحيوان والنبات . والتي يذكرنا بها ليفي ستراوس من خلال شهادات الانثولوجيين . للتدليل على العقلية العلمية لدى البدائيين . ولكن الواقع ان الكاتب يحدثنا عنها بطريقة

الاساسية والبنى الخاصة والممكنة في النظام اللغوي لاية لغة كانت .

٣ - ٦ : ولكن هذا الموقف يؤدي الى تجاهل تمايز المعرفة العلمية ( لان كل مظهر ذهني يصبح علما ) ، وكذلك الى تجاهل الشروط التاريخية التي ادت الى بناء المؤسسات العلمية والمراحل التي مرت بها .

ولا يمكننا بالطبع هنا التحدث عن العوامل الاجتماعية والتاريخية التي ادت الى قيام المعرفة العلمية وتطويرها والتي يتجاهلها ليفي ستراوس ليجعل من المعرفة العلمية المتحضرة وليدة استخدام اداة التصور ، الا اذا جعلنا من التاريخ العلمي والمؤسسي وليد اداة التصور . وهنا نقف عندئذ موقفا هيجليا مبسطا ومشوها .

٦ - ٤ - واذا كان من العبث ان ننظر الى علم المتحضرين كنظام تفرزه اداة التصور ، فمن العبث نظريا ان ننظر الى علم البدائيين . اي جميع تصوراتهم حسب ليفي ستراوس . ككل متماسك يختفي وراء المظاهر العشوائية للتصورات والحكايات الاسطورية ، كل يظهر تماسك العقل البشري في كل مظهره . وكان عقل الانسان منظم اساسا بحيث لا يفرز الا التنظيم . والحقيقة ان العقلية العلمية التي انتجت الانظمة العلمية هي نتيجة عمل علمي دؤوب ومتواصل ومتعثر احيانا كثيرة ، اصطدم في فرص النجاح بعوامل فشل كثيرة خلال التاريخ وقاومها واعاد بناء نفسه مراجعا مسلماته وفرضياته ونظرياته وادواته ومناهجه ، وتركيب موضوعاته . فلا شيء يسمح لنا بأن ننظر الى الذهن البشري كجوهر يفرز التنظيم والتماسك من خلال تصوراته ورؤياه لنفسه وللعالَم الخارجي . فالعقل

نظرية كانت ام علمية ( كما هو الحال في علم المتمدنين الذي نتحدث عنه ) ، يأتي من اختلاف الاداة المستعملة عند البدائي . فلولاء تلك الاداة لوجدنا علما مماثلا لعلم المتحضرين (او بالاحرى المفهوم الخاص للعلم عند ليفي ستراوس والذي هو موضوع مناقشتنا من الناحية المعرفية) .

٦ - ٢ : وهكذا يمكننا الاستنتاج بأن ليفي ستراوس يظهر بمظهر الاستمولوجي السيء عندما يميز علم المتحضرين بصفات ذهنية مشتركة بين جميع المظاهر الذهنية لدى المتحضرين والبدائيين ، حاصرا الفروقات وما يستتبعها في استعمال التصور عند البعض والعلامات الطبيعية عند البعض الآخر . ولكن ، ودون الحاجة الى مناقشة هذا الاختلاف الاداتي ، يمكننا ان نقوم باستنتاج مقتضياتها المنطقية . فبما انه كان من نصيب الفرع المتحضر من البشرية التي دخلت التاريخ ، ان تستعمل التصور بعد العصر النيوليتيكي كما يقول الكاتب ، فعلينا ان ننتظر من هؤلاء ان يفرزوا العلم افرازا ، تماما كما تجري اية عملية بيولوجية وطبيعية لا فرق بين اي من مظاهرها . ويصبح بذلك العلم صفة ملازمة للعقل البشري ، وهذا ما يقصده ليفي ستراوس لكي يبرهن ان جميع الاساطير يمكن ان تفسر من خلال ارجاعها الى نظام اسطوري مشابه للنظام اللغوي ، معتقدا انه بذلك يعطي الصفة العلمية الى الذهن البدائي ويفسر ، بنفس الوقت ، عدم عبثية المظاهر والتصورات الاسطورية على الرغم من التنوع الكبير في محتوى الاقاصيص الاسطورية : لانها تعود في النهاية الى اسطورة واحدة يحاول الكاتب بناءها او بالاحرى استخلاصها ، تماما كما يقوم اللغوي باستخلاص الوحدات الصوتية

فهم للاحداث . فالتنظيم خاضع في قيمته العلمية لمدى التفسير الذي يوفره للعالم . وحده النظام الرياضي يمكن اعتباره نظاما شكليا لا يطرح الا قواعد التمازج الشكلية علما بأن الاصول المعرفية للرياضيات ليست منقطعة عن القضايا التي تطرح في مجال علوم الطبيعة . فهي فيزياء مجردة كما يقال عنها .

هذا بصرف النظر عما هو معروف بأن عملية التشكيل العلمية (formalisation) للنظمة العلمية هي دائما موضوع اعادة نظر . لان حقل التجربة لا يقفل ابدا .

٧ - ٣ : فاذا كان الحال كذلك في العلوم الصحيحة التي تتقبل الشكل الرياضي لان معطياتها قابلة للتقييم الكمي . فاننا نفهم ضرورة عدم الانزلاق في الاغراءات الشكلية - التنظيمية التي تغرينا بها الالسانية والتي دعانا ليفي ستراوس خطأ لان ننظر اليها كرائدة للعلوم الانسانية في كتابه «الانثروبولوجية البنوية» (l'Anthropologie structurale). ويمكن ان نعطي ، في دراسة منفردة ، الدليل على ان الالسانية في حقيقة موضوعها ليست الا امتدادا لموضوع بيولوجي انساني ، معتمدين على نظرة ليفي ستراوس نفسه في التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية كما عبر عنها في كتابه : « البنى الاولى للقرابة » (١)

فالبنى الاساسية للغة ( حسب تعبير Chomsky ) تشكل حقيقة انسانية عامة بصرف النظر عن بنية كل لغة خاصة ، فاي انسان يمكن ان يتعلم اي لغة كانت كلفة ام اذا ما توفرت الشروط الاجتماعية الخاصة له . وبالتالي فان ما يجعل تعلم اللغة امرا ممكنا وعفويا يكمن في تركيبه الذهني - البيولوجي .

البشري الذي استطاع مؤخرا ان يتدع آلات « مفكرة » لا تخطيء . لا يمكن اعتباره اساسا ممائلا للتنظيم الذي توصل اليه من خلال عراكه الطويل المشبع بالاطعاء والتناقضات . ومعركة التماسك الذهني وثيقة الارتباط بمعركة تطابق الفكر مع الواقع في العملية العلمية .

٧ - ١ : وهناك برائنا خطأ لا يقل اهمية عن الخطأ السابق في تصور الرؤيا العلمية . الا وهو اعطاء صفة التنظيم والترتيب الاولوية في التعبير عن الحقيقة العلمية وحقيقة النظام العلمي نفسه .

وهنا نلتقي بالنظرة المعرفية المستقاة من المنهجية الالسانية البنوية التي تجد في النظام الفونولوجي للغة الحقيقة الاساسية التي تفسر خصوصية تمازج الاصوات والتركيب التي تصدر عنها كل الوحدات البسيطة والمركبة في من لغة خاصة ومعينة . وهنا يمكن الاقرار بأن ليس من مجال للحديث عن معنى لنماذج الاصوات ، فمعناها يكمن فقط في امكانية استنتاجها كتركيب ممكن داخل نظام اللغة الصوتي والتمازجي . وبالتالي ، تختفي مقولة المعنى والتفسير لتحل مكانها مقولة النظام ونماذج التركيبات الممكنة فيه .

ولكن اذا كانت فرضية اولوية النظام وغياب المعنى والتفسير . تشكل اعتبارات اخصبت التناول الفونولوجي للغة فليس هناك ما يدعونا الى اعتناق المبادئ المعرفية في الالسانية في تناولنا للاحداث الانسانية وحتى للاحداث الطبيعية .

٧ - ٢ : فلا قيمة للنظم العلمية في العلوم الطبيعية الا بمقدار ما تستطيع ان توفره من

نعطي الصفة العلمية الا للمعرفة التي يستخرجها العالم بشكل يتطابق مع القوانين التي تسير العوامل والاحداث الموضوعية .  
يتبين لنا اذن انه على الرغم من اعطاء نفس الكلمة لعلم البدائيين ولعلم المتحضرين فاننا في الواقع امام مفهومين مختلفين لنفس التصور .

٩ - ١ : والحقيقة ان علم البدائي ليس الا مجموعة معارف البدائيين وطريقتهم في تصور العالم وتصور علاقتهم بالعالم . وبهذه الصفة يمكن مقارنة العلم البدائي بالمعرفة التي يحملها الينا استعمالنا غير المنقود للفتنا الطبيعية، لغة التخاطب التي هي في الوقت نفسه اداتنا الفجة في التعرف على الاشياء ، وفي تفسيرها وفق ما تحمله هذه اللغة من تصورات مسبقة ، ومعتقدات وافعال ايمان مختلفة ، وقيم اجتماعية كامنة في متن الكلمات ، وادوات تفسيرية تشكل مفاصل معرفية للعديد من التفسيرات التي نتبادلها في احاديثنا ، لا بل والتي تملأ دقات كتب عديدة .

ويمكننا بهذا المعنى ان نتحدث ايضا عن معارف الاطفال ، وهنا يصبح موضوع علم هذه المعرفة استكشاف تصورات العالم عند الاطفال واستكشاف طبيعة الحقل الحياتي الذي يكونه الطفل للتعامل مع العالم ( على سبيل المثال لا الحصر ) ، كما يمكننا بالمعنى نفسه ان نتحدث عن « معرفة » المصابين عقليا *les aliénés* للعالم .

هذه المعارف تشكل موضوعا للمعرفة العلمية وليست معرفة علمية ، لان هذه المعارف لا تنبئنا مباشرة عن حقيقتها . ويعود امر تكوين هذه المعرفة او اعادة صياغتها الذهنية الى الفكر العلمي « المتحضر » الذي

هذا عدا ان اي لغة ، بدائية كانت ام متحضرة ، تتساوى من ناحية كمالها الشكلي المباشر ، الامر الذي يجعلنا اشد ميلا للنظر الى الظاهرة اللغوية كظاهرة بيولوجية ولو انها تجري خارج نطاق الجسد وليس الشكل الخاص الذي تأخذه اللغة في مجتمع ما الا تمظهرها يعكس في بنيته الخاصة ، بنية بيو - سيكولوجية اعماق جذورا في التركيب البيولوجي للانسان .

٨ - ١ : لقد تركزت مطالبتنا للبيو ستراوس كائنولوجي ( اي كعالم ) ان يستعمل تصورات (Concepts) محددة لا تدعو الى الالتباس . ذلك ان عمل العالم ، اكان موضوعه الانولوجيا ام الفيزياء ، يجب ان يعتمد على مفاهيم واضحة في المقال العلمي . ولا يمكننا ان نغير الفكرة التي نعتمدها عن العالم بانتقالنا من علم المتحضرين الى « علم » البدائيين ، فنقرر مثلا ان العلم يحمل الطابع المنظم لكل التصورات الذهنية ( عندما نتحدث عن البدائي ) بينما لا نعتزف بالطابع العلمي الا لجزء من النشاط الذهني الخاص ( عندما نتحدث عن المتحضرين ) ، وان نقرر انه عمل ذهني يبحث عن استكشاف الحقائق الموضوعية ( عندما نتحدث عن علم المتحضرين ) ، ثم نقرر ان العلم هو مجموعة مظاهر معرفية لا مجال للحديث فيها عن الخطأ والصواب ( عندما يتحدث ليفي ستراوس عن علم البدائيين ) . ولا نستطيع التاكيد ان ما ينتجه ذهن البدائي

منظم تماما كمنظومة علمية دون اقامة الدليل بان جميع منتجات الذهن المتحضرة لها نفس الخصائص . كما لا نستطيع الاقرار بان المعرفة العلمية ليست سوى انعكاس الاشكال الابدية للذهن البشري الذي يقنن المظاهر الواقعية ( عندما نتحدث عن علم البدائيين ) ، بينما لا

يمكنه ان يعي اكثر التصورات والوقائع  
الانسانية بعدا عن فكرة المنطقي وذهنيته  
العلمية .

١ - ١ : يبقى علينا ان نتخلص من مغالطة  
تشوش تفكير ليفي سترأوس في محاولته  
اثبات وجود علم بدائي . فهو يضعنا امام هذا  
المازق : اذا كنت تعترف بأن الفكر البدائي  
ليس فكرا عثيا (absurde) فعليك ان تعترف  
بأن فكره عقلاني وعلمي ( اما الفوارق الجلية  
فيعود امر طمسها الى استخدام ادوات مختلفة  
كما اسلفنا القول ) .

وبعد ان يعدد الامثلة عن عدد الانواع  
الحيوانية والنباتية التي يتمكن البدائيون من  
تمييزها وتصنيفها ضمن اجناس وانواع  
وعائلات ( دون ان يدعونا الى التاكيد من طبيعة  
المعايير المتخذة والتي نطلب اليها عادة ان تؤمن  
ثماسك التصنيفات العلمية وعدم تناقضها  
وتعددتها في مختلف التعريفات المبنية على هذه  
التصنيفات ) يقول لنا ما ترجمته : « لم يكن  
المتوحش ابدا وفي اي مكان، هذا الكائن (الذي  
ينظر اليه ) وكأنه خارج لتوه من وضعه  
الحيواني حيث ( يظن ) بأنه تحت سيطرة  
حاجاته وغرائزه التي طالما سررنا في تخيلها .  
ولا هو ( البدائي ) هذا النوع من الوعي الذي  
تسيطر عليه الاندفاعات العاطفية . الفارق  
في الفموض والتفكير التشاركي  
« participation » (١) . ( الفصل الثاني  
من كتاب « التفكير البدائي » ) . واهل هذا ما  
حدا بالمؤلف الى اختيار كلمة Sauvage بدل  
كلمة «Primitif» ، اي المتوحش بدلا من كلمة

البدائي .

ومع اعترافنا التام بخطأ تلك الفكرة السائدة  
عن الانسان البدائي ، فاننا نتساءل اذا كان  
تصحيح تلك الفكرة يستتبع بالضرورة الاعتراف  
بأن « للمتوحش » عقلية « علمية » لا نطلقها الا  
على فكر العلماء ، اي على عدد قليل من  
المتحضرين انفسهم ؟

١ - ٢ : وتجدر الملاحظة ان حكما كالذي  
يصدر على البدائيين ، والذي حدثنا عنه ليفي  
سترأوس ، ينطلق من سيكولوجية خاطئة  
للانسان المتحضر نفسه ، سيكولوجية مشبعة  
بالايدولوجية الدينية والافكار المسبقة التي  
تنظر الى الانسان الاوروبي الابيض كنموذج  
للانسان السوي ، وكل ما عدا ذلك يشكل  
تشويها للصورة، كما يؤكد عليه ليفي سترأوس  
في كتابه «le totémisme aujourd'hui» .  
والحقيقة اننا هنا امام سيكولوجية متحجرة  
لم تعد لها اية قيمة علمية . وهنا لا بد من  
القول اننا عندما نسيء فهم المتحضر فاننا  
نسيء فهم البدائي والعكس صحيح ايضا .  
ولكن ليفي سترأوس وقع في الخطأ نفسه  
عندما ذهب الى حد الافتراض بأن مظاهر  
الذهن البدائي تعادل في جوهرها الذهنية  
العلمية عند المتحضرين . وبذلك فقد علم  
البدائيين كل خصوصية المرجوة في العلوم  
الانسانية التي كانت تنتظر من دراسة  
البدائيين اعطاء نظرة نسبية الى المتحضرة  
نفسه ، نظرة تساعد على ان يفهم نفسه ويفهم  
البدائي انطلاقا من نفس النظرية التي يعود اليها  
عندئذ ان تفسر سبب الاختلاف وتحديد

(١) الكلمة تعود الى «Levy Bruhl» في تفسير العقلية البدائية كمعقبة مختلفة عن عقلية المتحضرين وتميز بالتماهي  
مع كائنات طبيعية او غير طبيعية في معتقداتها وتصوراتها لواقعها وعلاقاتها بالعالم . والمشاركة في ما يوصل البدائي  
بهذه القوى التي يعتقد بوجودها .



١١ - ٢ : فعندما رفض فرويد مثلاً ان يرى في الاحلام واقعا مشوشا في اساس تركيبه ، وحاول اكتشاف المنطق الخفي للتشويش الظاهري للحلم اكتشف بعض القواعد الاساسية التي تقوم وظيفتها الاساسية على تشويش الحلم في وعي التائم : وكلنا يعرف هذه القواعد : التمرح (Dramatisation) الاستبدال (Substitution) والتكاثف (Condensation)، وجميعها قواعد مختلفة عن القواعد المنطقية التي تسير البحث العلمي ، ونجدها في القواعد البلاغية للنصوص الادبية وفي تفكيرنا وردات فعلنا في حياتنا اليومية ، كما نراها في السينما الحديثة ، كما يراها علماء النفس التحليليون في مختلف الاعراض المرضية في سلوك المرضى واحاديثهم .

اذن ، فـ «منطق» العصابي (le névrosé) يختلف عن منطق عالم النفس التحليلي ، وكذلك الامر بالنسبة لعلم نفس الطفل ومنطق الطفولة وغيرها من الموضوعات النفسية - الاجتماعية . ولا يجوز كذلك الخلط بين عقلانية العلم وعقلانية الواقع ( اي قابليته للمعرفة ) . وقد المحنا في ما سبق الى ان هذا الخلط في تفكير ليفي ستراوس يأتي من اعتماده على نموذج النظام اللغوي الذي يشبه نظاما رياضيا في تكوينه وفي امكانية استنتاج التمازجات اللغوية الممكنة والمعتمدة في لغة ما .

١٢ - ١ : لقد ادركنا ان بعض سمات « الروح العلمية » ( دقة الملاحظة ، والاهتمام بالتصنيف ووضع النظم ، والاعتقاد الذهني بوجود علاقة بين الكائنات والاحداث والوقائع ) لا تكفي لاعطاء الدليل على وجود نشاط علمي عند البدائي . لا بل انها لا تكفي لتفسير الانتاج العلمي عند المتحضرين . فمقولة « الروح

مفهوم الحضارة التاريخي ، تلك التي ننزع للنظر الى معطياتها وكأنها وقائع او حقائق طبيعية او خاصة بـ « طبيعة » الشعوب او الامم التي نعنى بدراسة احوالها .

تماما كما يجري في علم النفس التحليلي الذي ينطلق من دراسة الانسان « غير السوي » الى دراسة حقيقة الانسان السوي وتوازاته التي تعطي صورة خاطئة عن حقيقة واقعه النفسي . ان هذه الانتروبولوجية التمازجية (différentielle) الخصبة والمخصبة للمعرفة الانسانية هي التي يحيد عنها ليفي ستراوس في انتروبولوجية العقل البشري في نموذجية الاثنين ( المتحضر والبدائي ) التي تشكل فلسفة استقصاءاته العديدة في الحقل الانتروبولوجي ( باستثناء مؤلفه الاساسي « البنى البسيطة للقرابة » حيث لم يكن ليفي ستراوس ، بعد ، بنيويا ) .

١١ - ١ : ولنترجع السؤال الذي يطرحه علينا ضمنا ليفي ستراوس في بداية المقطع السابق ، لنجيب بأننا عندما نحكم بان واقعا ما هو واقع عيشي فان ذلك يعني تنازل العقل العلمي عن محاولة التفسير ، وغالبا ما يكون منقادا الى هذا الموقف بفعل مواقف ذهنية مسبقة تجعله يركن الى مسلماته ويرى في كل ما يستحيل تفسيره بلدا من هذه المسلمات امرا غير قابل للتفسير ، اذن ، واقعا عيشيا .

ولكننا حينما نحاول الافلات من مسلماتنا في تناولنا لوقائع جديدة فاننا لا نرى اي سبب يدعونا الى الاعتقاد المسبق بان ما نتناوله يتساوى في طبيعته واولياته مع اوليات تفكيرنا العلمي ، وان « منطق » هذا الواقع يشابه منطق المعرفة الذي نحاول كشف اولياته .

العلمية « هي مقولة ميتافيزيقية بحد ذاتها ولا يمكنها ان تنبئنا بالشئ الكثير عن العلم اذا ما نظرنا الى هذا الاخير كعملية انتاج معرفة .  
١٢ - ٢ : ولكن سمات الروح العلمية قد تشير الى امكانيات ذهنية وصفات نفسية لا بد منها لانتاج المعرفة العلمية ولو انها لا تكفي مطلقا لتفسيرها كعملية انتاج . وهنا تدخل بلا شك ملاحظات ليفي ستراوس الانتولوجية ضمن اطار تصحيح سيكولوجية الانسان البدائي . فهي تدل على ان الانسان البدائي مزود بنفس الامكانيات الذهنية . لا بل يمكننا ان نضيف : انه في ذلك الوضع البدائي . الذي تختفي منه المؤسسات المتخصصة . وعملية التراكم ( ما عدا الشفهي منها الذي يمر من جيل الى جيل ) وامكانية الاعتماد على الآخرين في توفير المعرفة وتطبيقاتها المتعددة في شتى مجالات الحياة . فان معرفة العالم تفرض نفسها حياتيا على البدائي وتاهم في شحد مواهبه واستعداداته المعرفية التي تبقى متيقظة ابدا للتنبؤ بما يمكن ان يحصل ولكن يقيم تنظيمات تساعده على التعرف ( والتعرف هو غير المعرفة ) المنضبط على العالم الخارجي من اجل استخدام امكانيات استغلاله والدفاع عن النفس من اخطاره المتنوعة . ويمكن الاستنتاج من مشاهدات الاثنولوجيين ان هذه المواهب الذهنية تبقى اكثر يقظة عند البدائيين منها عند المتحضرين نظرا لاختلاف مجتمعيهما ،

١٣ - ١ : ولكن استقصاءات ليفي ستراوس الانتولوجية . واستخدامه لشهادات زملائه الاثنولوجيين قد استغلت من اجل ان تخدم فرضية ذات طابع علمي ظاهري فقط ، فرضية هي في حقيقتها فلسفة العقل البشري الواحد في جميع مظاهره ، سواء اكان عند المتحضرين ام عند البدائيين ، وهي فلسفة افرزها الاعتقاد بان الالسية هي النموذج المعرفي للعلوم الانسانية . فجاءت لتعرض نفسها كفلسفة مسبقة في تناول الوقائع ( وهذا الامر يظهر بشكل واضح في كتب ليفي ستراوس حول دراسة الاساطير المكسيكية ، عند بدائي الامازون ) لكي تقولب مسبقا من اجل البرهان على فلسفة ليفي ستراوس البيوية . ولعل ذلك اخطر ما نرى في تصرف العالم : الزام الاحداث بان تبرهن على فرضية مسبقة . وفي ذلك مثل عن الاهمية المعرفية لفهوم المعرفة العلمية في طريقة استقصاء المعرفة . ونموذج عن كيفية انغلاق حقل المعرفة وذبولها عندما تقتصر على خدمة موقف علموي هئ .

ولا يسع المرء الا ان يقابل بين « علمية » البيوية الزائفة والنظرية الفرويدية ، او بالاحرى المنهجية الفرويدية التي اخصبت الابحاث في جميع ميادين العلوم الانسانية . ولكن ذلك يستدعي حديثا آخر نكتفي هنا بالتلميح اليه .

العلمية « هي مقولة ميتافيزيقية بحد ذاتها ولا يمكنها ان تنبئنا بالشئ الكثير عن العلم اذا ما نظرنا الى هذا الاخير كعملية انتاج معرفة .  
١٢ - ٢ : ولكن سمات الروح العلمية قد تشير الى امكانيات ذهنية وصفات نفسية لا بد منها لانتاج المعرفة العلمية ولو انها لا تكفي مطلقا لتفسيرها كعملية انتاج . وهنا تدخل بلا شك ملاحظات ليفي ستراوس الانتولوجية ضمن اطار تصحيح سيكولوجية الانسان البدائي . فهي تدل على ان الانسان البدائي مزود بنفس الامكانيات الذهنية . لا بل يمكننا ان نضيف : انه في ذلك الوضع البدائي . الذي تختفي منه المؤسسات المتخصصة . وعملية التراكم ( ما عدا الشفهي منها الذي يمر من جيل الى جيل ) وامكانية الاعتماد على الآخرين في توفير المعرفة وتطبيقاتها المتعددة في شتى مجالات الحياة . فان معرفة العالم تفرض نفسها حياتيا على البدائي وتاهم في شحد مواهبه واستعداداته المعرفية التي تبقى متيقظة ابدا للتنبؤ بما يمكن ان يحصل ولكن يقيم تنظيمات تساعده على التعرف ( والتعرف هو غير المعرفة ) المنضبط على العالم الخارجي من اجل استخدام امكانيات استغلاله والدفاع عن النفس من اخطاره المتنوعة . ويمكن الاستنتاج من مشاهدات الاثنولوجيين ان هذه المواهب الذهنية تبقى اكثر يقظة عند البدائيين منها عند المتحضرين نظرا لاختلاف مجتمعيهما ، والى ان قلة من المتحضرين تهتم بالاعمال العلمية والتقنية ، بينما يقع على عاتق كل فرد من البدائيين ان يدرك جميع ما يدور حوله لكي يتكيف مع محيطه . وليس من المستبعد ابدا ان يصل البدائي الى معرفه خصائص الكائنات ، خاصة ما يتعلق منها